الإجرام والجنون

فى نظر علم النفس الحديث

الإنسان حيوان اجتماعى . ومغزى هـــذا الوصف كبير جدا عند ما نبحث الاخلاق أو الحضارة أو الفضائل والرذائل . فان كل ما نمتاز به من لغة أو تفكير أو صناعات إنما يرجع الى هذه الصفة الاجتماعية . والحيوانات العليا من اللبونات تنقسم فريقين أحدهما انفرادى أى أنه مثـل الأسد أو النمر أو القط يعيش منفردا . والفريق الآخر اجتماعى أى أن أفراده تجتمع قطعانا أو أجالا كالفيلة أو البقر . والإنسان ينتسب الى هذا الفريق الثانى .

ولو كان الإنسان انفراديا يعيش وحده مستقلا عن زملائه من البشر لما عرف اللغـة أو التفاهم . اذ كيف يتفاهم ولمـادا يتكلم اذا كان منفردا ؟ بل عندئذ يقصر ذكاؤه ويحد بحدود الشهوتين الجنسية والبقائية . ولانستطيع أن نتخيل إنسانا منفردا يمكنه أن يرتكب جريمة ما إذ مع من يرتكب ؟ كما لا يمكننا أن نتخيله متحدثا راويا يميز بين الفضيلة والرذيلة لأن كل هذه صفات الاجتماع وليست صفات الانفراد .

والاجتماع بعـد ذلك قوة ، كما نرى مثلا فى النحلة . فانها منفردة ليست كبيرة الخطر فى الدفاع أو الهجوم . ولكنها عندما تجتمع بغيرها تغدو قوة لا يستهان بها . وفى تنازع البقاء بين الحيوان نجد أن الحيوانات الاجتماعية قد تكاثرت وتوافرت لها أسباب البقاء والغلبـة أكثر من الحيوانات الانفرادية . وغرائز لاجتماع هى الغرائز التى تعزى الصناعة والتجارة والحضارة إليها .

والمعروف فى السيكلوجية أن قوة الغرائز تقاس بتأصلها أى بقدمها فى الإنسان . فالقديم منها أعمق أصولا وأثبت جذورا من الجديد . واذا تصادمت الغرائز القديمة الثابتة مع الغرائز الجديدة المزعزعة تغلبت الأولى . وفى الإنسان ثلاث غرائز بدائية هى :

غريزة البقاء التى ننبعث بها الى طلب الطعام للبقاء .

وغريزة التناسل التى تبعثنا على طلب الجنس الآخر .

وغريزة الاجتماع التى تحبب الينـا العيش مع سائر البشر وتحملنا على النزول على عاداته وأقيسته واتخاذ فضائله .

ولكن الغريزتين الأوليين أقدم وأثبت من الغريزة الثالثة . فاذا تعارضت الغريزة الأولى أو الثانية مع الغريزة الثالثة وكان التعارض عظيما لا يقبل التسوية فان الأغلب أن الفرد لا يبالى الغريزة الاجتماعية بل يخالفها ايثارا لإحدى الغريزتين الأوليين . ومن هنا الجريمة . لأن الجرائم لاتعنى شيئا آخر سوى عجز الفرد عن التوفيق بين غريزته الاجتماعية و بين غريزتى الطعام (الامتلاك) والتناسل .

ونعود فنكرر هنا أنه لا معنى للاجرام اذا كان الحيوان انفراديا . لأننا عند ما نجرم يجب أن نسيء الى أى شخص آخر فى سرقة ماله أو طعامه أو أى شيء من ممتلكاته أو حتى أثناه. وكل هذه أشياء لايدركها إنسان انفرادى اذا فرضنا أنه يمكن أن يوجد مثل هذا الإنسان .

وهنا تنبلج لنا حقيقة . وهى أنه اذا أردنا أن نمنع الجرائم فى مجتمع ما فيجب علينا أولا ألا نجعل التصادم بين الغريزة الاجتماعية و بين غريزتى البقاء والتناسل متاحا . بل ننظم هذا المجتمع بحيث تتسع لكل فرد منه الفرص لأن يحصل على عيشه وأن يتزوج فى سن ملائمة . ثم بعد ذلك نربى الفرد على التعاون مع هذا المجتمع فنغرس فيه الإكبار من الفضائل التى يقول بها هذا المجتمع والنزول على عاداته والرضى بمشياته حتى يحس ألما عند ما يخالفها كما يحس ألم الجوع .

والآن نستطيع أن ندخل فى موضوعنا وهو علاقة الجنون بالجرائم . فان هنالك من يعزو الجرائم جميعها الى الجنون من حيث إن المجرم قد اختلت فيه الغريزة الاجتماعية . وفى هذا النظر بعض الإصابة . لأن المجرم يعجز عن التنسيق بين غرائزه . ولكن هذا الإطلاق و التعريف يحول دون التمييز بين الجرائم خطيرها وتافهها ، كما أنه يساوى فى التبعات بين جميع المجرمين . وقبل أن نبين العلاقة بين الجنون والإجرام نحتاج الى أن نميز بين أنواع الجنون . فان المشهور أن المجنون قد اختلط عقله وساء تفكيره . ولكن ليس هذا هو الواقع فى معظم الحالات . لأن الأغلب أن المجنون لا يسوء عقله بقدر ما يسوء سلوكه وتصرفه . وأحرى بنا أن نقول إن المجنون هو الذى اختلطت عواطفه وتزعزع اتزانها .

وأخف أنواع الجنون هو النيوروز . أى جنون العواطف . وفى هذه الحال يعرف النيوروزى أنه مريض يحتاج الى المعالجة وأنه يكره مرضه ويود لو يشفى منه . كذلك الرجل (أو فى الأغلب المرأة) التى تدخل المخازن التجارية وتلتقط خلسة بعض المعروضات التى ربما لا تحتاج اليها مما يسمى "كليتومانيا" فانها بعد أن يذهب عنها احتداد العاطفة التى أوقعتها فى هذه الجريمة تندم على ما فعلت وقد تعقد العزيمة على الكف عنها . أو كذلك السكير الذى يكره عادته ولكنه لا يطيق الإقلاع عنها . وكثيرمنا من هذه الناحية يصاب

بقليل أو كثير من هذا النيوروز الذى يحملنا على الهروب من الواقع المؤلم بالتدخين أو الشراب أو حتى أكل الطب .

وفى النيوروز فى الحطورة ما يسمى السيكوز وهو توهم حادثة أو حال لا أصل لها . ثم يؤدى هـــذا التوهم الى اتخاذ نوع من السلوك أو التصرف الشاذ . وإذا كان السيكوز خفيفا فان المريض فى أوقات صحوه يدرك خطأه فى هذا التوهم . أما اذا كان شديدا فان العقل يعم عليه ويعتقد المريض أن جميع أوهامه حقيقية . وهو هنا لا يسلم بأنه مريض وهو يدافع بكل قوة عن أوهامه فيثبت بذلك جنونه . لأن أعظم علامة للجنون أن يعتقد المجنون أنه سليم وأن ليست به حاجة الى طلب المعالجة والشفاء .

ونستطيع أن نقول إن ٩٩ فى المـائة من الجرائم من نوع النيوروز . أى أن الجنون هنا فى العواطف فقط . فان التناسق بين عاطفتى البقاء والتناسل وبين الطبقة الاجتماعية قد اختل . ولكن المريض أى المجرم يعرف هذا الاختلال ويود لو يجد طريقا آخر لتحقيق غايته بدون الجريمة . وهنـا تتضح لنـا مسئوليته . لانه أحس صراعا بين الإقدام والإحجام وكانت له فرصة الاختيار الى حد ما .

أما حين يكون هناك سيكوز — أى أوهام عقلية تؤدى الى تصرف شاذ — فإن المريض يعجز عن الاختيار حتى حين تعود اليه لحظات الصحو ويدرك أن هذه الأوهام لا حقيقة لها . ولكن هذه اللحظات نادرة .

والسيكوزى — بخلاف النيوروزى — يعتقد صحة أوهامه . ومن السيكوز مثلا ذلك المرض المسمى " بارانويا " فانـا هنا نجد أوهاما منظمة يعتقد صاحبها أنها قائمة على أن أشخاصا يتآمرون على قتله وهو يسقهم بارتكاب القتل إما بهم لكى ينجو من المؤامرة الموهومة وإما بغيرهم لكى ينفت النظر الى المؤامرة المزعومة . ومعظم الاغتيالات التى تقع بالرؤساء والزعماء تعود الى هذه البارانويا أى اعتقاد القاتل بأن هناك مؤامرة للإيقاع به .

وهنا يخطر لنا السكر . هل هو سيكوز أم نيوروز ؟

الواقع أن السكير قبل أن يشرع فى الشراب يعرف أنه يقارف عادة غير اجتماعية ، ولكنه أيضا يحس وطأتها وعجزه عن المقاومة فيخضع لها . فهو هنا فى نيوروز من حيث إنه عاجز عن ضبط عواطفه وإن كان عقله سليما . أو هو كتلك السيدة الأنيقة التى لا تطيق منع يدها عن التقاط بعض المعروضات خلسة . ولكنه بعد أن يشرب ويسكر يصبح فى سيكوز لاغش فيه . فهو حين يكون سكران يكون مجنونا بكل معانى الجنون لأنه يتوهم أوهاما كاذبة ، وأيضا يعجز عن التصرف الحسن . فمسئوليته هنا هى مسئولية المجنون .

ويمكن أن نلخص علاقة الجنون بالجرائم فيما يلى :

(١) السكر الذى يحدثه الكئول لأنه يزيد الجراءة ويحدث الأوهام ويوقظ العواطف النائمة ويجعل السكير يرتكب جريمته كأنه فى غيبوبة .

(٢) " الضعف العقلى " فإن متوسط الذكاء بين المجرمين فى السجون يبلغ ٨٩ من المئة . باعتبار أن درجة المئة هى متوسط الذكاء عند الناس . ولكن بعد ما أصاب نظرية القياس الذكائى من انتقادات يجب ألا نعلق أهمية كبيرة على هذه الأرقام . لأن الإجرام قد يكون عادات اجتماعية مكتسبة بدلا من أن يكون عجزا وراثيا عن السلوك الحسن قد نشأ من نقص الذكاء .

(٣) جميع المفلوجين فى الفالج الوراثى يرتكبون الجرائم وهم فى غيبوبة : وجرائمهم تنبنى على سوء التمييز . كالأم التى تقطع ذراع ابنها — قبل نوبة الفالج — وهى تظن أنها تقطع الخبز .

(٤) البارانويا : وقد ذكرناها . وهى توهم مؤامرة تحمل المريض على الدفاع عن نفسه بالإقدام على ارتكاب جريمة ما .

(٥) مرض الشلل العام الذى يحمل صاحبه على البطش .

والنظر السيكلوجى للجريمة جديد . وهو لهذه لحدة عرضة للخطأ . ولكن يمكن أن يقال إن الاتجاه العام فى هذا النظر هو الإيمان بأن للوسط الأثر الأكبر فى الإجرام الذى لا يعادله ولا يقاربه أثر الوراثة . فنحن نجرم لأن المجتمع أفسدنا وعودنا أسلوبا للعيش لا يتماسق مع هذا المجتمع وليس لأننا ولدنا بنوازع إجرامية .

ومن هنا قيمة المعالجة للمجرمين بتعويدهم أسلوبا جديدا للعيش . ففى السجون يعلم المجرم صناعة جديدة مثلا يستطيع أن يكسب بها عيشه . وهو عند ما يغادر السجن يجد الجمعيات الخيرية التى ترشده الى العمل ولا تتركه متعطلا يأسا يعود بتفكيره الى الجريمة . أما أولئك الذين يثبت عليهم الجنون — وهم أقلية صغيرة على الدوام — فإنهم يجب أن يبعدوا عن المجتمع .